القرآن والعلم

لقد جاءت كل معجزات الأنبياء قبل محمد صلى الله عليه وسلم مادية بحيث أن عالم المحسوس وهو "الظاهرة الطبيعية المشخَّصة للمعجزة" سبق عالم المعقول والمجرَّد بفترة زمنية طويلة الأمد. وذلك لأن الإنسان في مراحل تطوره كان عالَم المحسوس المباشر عنده أهم من عالَم المعقولات المجردات.

وعندما وصل الإدراك الإنساني إلى درجة أعلى مما كان عليه في السابق، جاءت معجزة النبي محمد (ص) متمثلة في أيات القرآن الكريم، مبتعدة عن المعجزات المشخصة التي أتت مع الأنبياء السابقين. ونزل القرآن عن طريق الوحي بصورة صوتية بلسان عربي مبين تحدى فيها فصحاء العرب، كما في الآيات التالية:

-)قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً (الإسراء 88.
-)أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورةٍ مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين (يونس 38
- (أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سورٍ مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين) هود 13.
-)وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورةٍ من مثلهِ وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين (البقرة 23

وبما أن محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء فيجب أن تبقى معجزته خالدة، ليس في البلاغة والدقة والأسلوب فقط، بل أيضا في ما تحتويه الآيات من دلائل على عِلم ومقدرة الله التي تبرهن أن القرآن من عند الله وليس من عند الإنسان. وكلما تقدمت الإنسانية في المعارف والعلوم يظهر إعجاز القرآن بشكل أوضح. فكلما تقدم الزمن تدخل طروحات القرآن ضمن المحسوسات المدركة، وهذا ما يسمى بالتأويل المباشر أي مطابقة المدرك من المحسوس مع النص. فيقول تعالى: (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد (فصلت 53 . (لكل نبأ مستقر وسوف تعلمون) } الأنعام 67

)بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله.. الآية (يونس 39

وقوله تعالى (وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم (آل عمران 7. فهو: بما أن القرآن حقيقة مطلقة فتأويله الكامل لا يكون إلا من قبل واحد فقط، وهذا الواحد هو الله. أما معرفة

التأويل المتدرج المرحلي فهو من قبل الراسخين في العلم كلهم مجتمعين لا فرادى. وهنا يجب أن نفهم أن الراسخين في العلم هم مجموعة كبار الفلاسفة وعلماء الطبيعة وأصل الإنسان وأصل الكون وعلماء الفضاء وكبار علماء التاريخ وعلماء الشريعة مجتمعين.

وبما أن النبوة فيها قوانين الحق والباطل التي تنطبق على كل إنسان، شاء أم أبى، وجاءت بصيغة متشابهة "تغير المحتوى وثبات النص ونسبية الفهم". لذا قال: {فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه} . وفي أي محاولات للتفسير والتأويل يجب أن يكون حاضرا في الأذهان أن الهدف الأساسي للقرآن الكريم، هو تبصير الإنسان بطريق الهداية ودعوته لسلوكها وأنه ليس كتاب علوم الطبيعة أو الفلك. (إِنَّ هذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً) الإسراء: ٩ .

وجاءت هذه الهدايات والدعوة إليها بأساليب متنوعة، فمن مخاطبة للفطرة الإنسانية، ومن استدلال بواقع الأشياء المحسوسة، إلى مجادلة عقلية، إلى تذكير بعاقبة الأمم السابقة، إلى لفت نظر إلى واقع القصور البشري .. ولما كان المخاطبون هم جملة الناس بمختلف طبقاتهم وفئاتهم وعلى اختلاف مستوياتهم الفكرية والثقافية، جاء في القرآن الكريم من البراهين والأدلة والأمثال ما يعم الشرائح الاجتماعية على مختلف العصور والبيئات، لأن المنطلقات الإنسانية محكومة بالفطرة والعقل والتجارب، وكل ذلك في دائرة المحدود الممكن، لذا كانت قواعد المخاطبات وأسسها العامة تعمّ كل من كان في عصر نزول الوحي ومن يأتي بعدهم إلى يوم القيامة .

)وَلَقَدْ صَرَّفْنا فِي هذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكانَ الْإِنْسانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ٥٤ [الكهف: ٥٤.

وإذا أدركنا هدف القرآن ومنهجه في الخطاب أدركنا أن ورود الآيات الكونية سواء ما يتعلق منها بالآفاق وما يتعلق منها بالأنفس البشرية شيء بدهي أيضا، لأن من فئات الناس المكلفين المخاطبين بالقرآن الكريم من ينصبّ جلّ اهتمامه على هذه الجوانب من مخلوقات الله، ولا بد من إقامة الحجة عليهم، وإظهار أن القرآن كلام الله المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم ليبشر به المؤمنين وينذر به الكافرين، ومن لا يستطيع(خاصة من غير المتمكنين باللغة العربية) أن يتذوق هذه الطوائف من الجمال البياني، ويدرك فصاحته وبلاغته ليعترف بالتالي أنه كلام الله المعجز ...فإن ورود هذه الحقائق الضخمة والدقيقة عن الكون في نفس الوقت على لسان رجل لم يكن له إلمام بمثل هذه العلوم دليل على أنه تلقّاها ممن يعلم السرّ في السماوات والأرض) قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كانَ غَفُوراً رَحِيماً) الفرقان: ٦

والمتتبع لآيات القرآن الكريم يجد أن مئات الآيات قد تحدثت عن سنن الله سبحانه وتعالى في هذا الكون ونظامه وألوان العناية الربانية بمخلوقاته فيه، لذا كان لزاما على المهتمين بالدراسات القرآنية أن يولوا هذا الجانب اهتمامهم.

إلا أن دراسات سابقة في الإعجاز العلمي للقرآن اتجهت هذا الاتجاه من غير ضوابط، على الرغم من حماس أصحابها وصدق مشاعرهم، قد أدت إلى نتائج عكسية، مما جعل كثيرا من الناس يحملون على هذا الاتجاه حرصا منهم على إبعاد القرآن الكريم عن مجال الإخضاع للنظريات العلمية المتقلّبة، أو التعسف في تأويل النصوص أو تحميلها ما لا تحتمل من الدلالات .

إلّا أنَّ طرفي القضية قد وقع في المحظور: فالذين اتجهوا نحو التفسير العلمي من غير ضوابط تكبح جماح الفكر والخيال والسعي وراء النظريات قد أفرطوا ووقعوا في أخطاء ينبغي تنزيه القرآن الكريم من مثل ذلك، وكذلك الطرف الآخر الذين منعوا هذه البحوث وحاولوا سد الباب أمام الباحثين قد فرّطوا في مئات الآيات ولم يعطوها حقها في التدبر والبحث، ومنعوا الدعاة من حمل سلاح من أمضى الأسلحة في العصر الراهن لإقامة الحجة على ملاحدة العصر، وإثبات صحة الرسالة وصدق الرسول. فهذا الذي جاء من عند الله . . بصائر . .

ونلاحظ من تدبُّر الآيات أن الأسلوب القرآني في بعض الآيات مرن، فعندما يعرض القضايا الكونية أو الجوانب المادية أو المعنوية في الإنسان أو ما يحيط به، يستعمل أسلوبا مرنا يقبل وجوها للتأويل. فعند إرادة فهم الكلمة القرآنية أو العبارة القرآنية لا بد من الرجوع إلى دلالات الكلمة الحقيقية والمجازية، واستعمالاتها في اللغة العربية، لتكون المعاني التي تحتملها الكلمة واضحة في الذهن عند الإقدام على تفسيرها في هذا المجال.

وسنستعرض فيما يلي بعض الأمثلة عن بعض الآيات وكيف فسَّرها بعض العلماء من الطرفين :

قال تعالى: (يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَواقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِها وَلكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوابِها وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) البقرة 189

يقول سيد قطب في شرحه وتعقيبه على هذه الآية في كتابه (في ظلال القرآن):

"تقول بعض الروايات : إن النبي (ص) سئل ذلك السؤال عن الأهلة : ظهورها ونموها وتناقصها . . ما بالها تصنع هذا ؟ وتقول بعض الروايات : إنهم قالوا : يا رسول الله لم خُلِقت الأهلة ؟ فقال الله لنبيه (ص : (قل : هي مواقيت للناس والحج). . مواقيت للناس في حلهم وإحرامهم ، وفي صومهم وفطرهم ، وفي نكاحهم وطلاقهم وعدتهم ، وفي معاملاتهم وتجاراتهم وديونهم . . وفي أمور دينهم وأمور دنياهم على سواء. وفي ذلك دلالة على عدول القرآن عن الإجابة العلمية إلى وظيفة الأهِلّة. فالجواب اتجه إلى واقع حياتهم العملي، لا إلى مجرد العلم النظري ؛ وحدثهم عن وظيفة الأهلة في واقعهم وفي حياتهم ولم يحدثهم عن الدورة الفلكية للقمر وكيف تتم وهي داخلة في مدلول السؤال : ما بال القمر يبدو هلالا . . . إلخ. كذلك لم يحدثهم عن وظيفة القمر في المجموعة الشمسية أو في توازن حركة الأجرام السماوية . وهي داخلة في

مضمون السؤال : لماذا خلق الله الأهلة ؟ فما هو الإيحاء الذي ينشئه هذا الاتجاه في الإجابة ؟ الإجابة " العلمية " عن هذا السؤال ربما كانت تمنح السائلين علما نظريا في الفلك ؛ إذا هم استطاعوا - بما كان لديهم من معلومات قليلة في ذلك الحين - أن يستوعبوا هذا العلم ، ولقد كان ذلك مشكوكا فيه كل الشك ، لأن العلم النظري من هذا الطراز في حاجة إلى مقدمات طويلة ، كانت تعد بالقياس إلى عقلية العالم كله في ذلك الزمان معضلات .

من هنا عدل عن الإجابة التي لم تتهيأ لها البشرية ، ولا تفيدها كثيرا في المهمة الأولى التي جاء القرآن من أجلها . وليس مجالها على أية حال هو القرآن . إذ القرآن قد جاء لما هو أكبر من تلك المعلومات الجزئية . ولم يجيء ليكون كتاب علم فلكي أو كيماوي أو طبي . . كما يحاول بعض المتحمسين له أن يلتمسوا فيه هذه العلوم ، أو كما يحاول بعض الطاعنين فيه أن يتلمسوا مخالفاته لهذه العلوم !

ولقد قال الله سبحانه : (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) ومن مقتضى هذه الإشارة أن نظل نتدبر كل ما يكشفه العلم في الآفاق وفي الأنفس من آيات الله . وأن نوسع بما يكشفه مدى المدلولات القرآنية في تصورنا .

إن مجال القرآن هو النفس الإنسانية والحياة الإنسانية . وإن وظيفته أن ينشئ تصورا عاما للوجود وارتباطه بخالقه ، ولوضع الإنسان في هذا الوجود وارتباطه بربه ؛ وأن يقيم على أساس هذا التصور نظاما للحياة يسمح للإنسان أن يستخدم كل طاقاته . . ومن بينها طاقته العقلية ، التي تقوم هي بعد تنشئتها على استقامة ، وإطلاق المجال لها لتعمل - بالبحث العلمي - في الحدود المتاحة للإنسان - وبالتجريب والتطبيق، وتصل إلى ما تصل إليه من نتائج ، ليست نهائية ولا مطلقة بطبيعة الحال .

إن مادة القرآن التي يعمل فيها، هي الإنسان ذاته : تصوره واعتقاده ، ومشاعره ومفهوماته ، وسلوكه وأعماله ، وروابطه وعلاقاته . . أما العلوم المادية ، والإبداع في عالم المادة بشتى وسائله وصنوفه ، فهي موكولة إلى عقل الإنسان وتجاربه وكشوفه وفروضه ونظرياته، حيث أنها أساس خلافته في الأرض ، وبما أن الله هيأها له بطبيعة تكوينه . والقرآن يصحح له فطرته كي لا تنحرف ولا تفسد ، ويصحح له النظام الذي يعيش فيه كي يسمح له باستخدام طاقاته الموهوبة له ؛ ويزوده بالتصور العام لطبيعة الكون وارتباطه بخالقه ، وتناسق تكوينه ، وطبيعة العلاقة القائمة بين أجزائه - وهو أي الإنسان أحد أجزائه - ثم يدع له أن يعمل في إدراك الجزئيات والانتفاع بها في خلافته . . ولا يعطيه تفصيلات لأن معرفة هذه التفصيلات جزء من عمل الإنسان الذاتي . فكيف ؟ ودون أن نعلق النصوص القرآنية النهائية المطلقة بمدلولات ليست نهائية ولا مطلقة ؟ هنا ينفع المثال :

يقول القرآن الكريم مثلا :(وخلق كل شيء فقدره تقديرا) . . ثم تكشف الملاحظات العلمية أن هناك موافقات دقيقة وتناسقات ملحوظة بدقة في هذا الكون . . الأرض بهيئتها هذه وببعد الشمس

عنها هذا البعد ، وبعد القمر عنها هذا البعد ، وحجم الشمس والقمر بالنسبة لحجمها ، وبسرعة حركتها هذه ، وبميل محورها هذا ، وبتكوين سطحها هذا . . وبآلاف من الخصائص . . . هي التي تصلح للحياة وتلائمها . . فليس شيء من هذا كله فلتة عارضة ولا مصادفة غير مقصودة . . هذه الملاحظات تفيدنا في توسيع مدلول : (وخلق كل شيء فقدره تقديرا) وتعميقه في تصورنا . . فلا بأس من تتبع مثل هذه الملاحظات لتوسيع هذا المدلول وتعميقه .

وفي قوله تعالى: (تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (المعارج: ٤ وقوله (يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّماءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ) السجدة: 5. يذهب علماء الفلك المعاصرون إلى ما يطلقون عليه النسبية الزمنية وأن لكل كوكب وحداته الزمنية الخاصة به، وذلك يقدر بالنسبة لسبحها في الفضاء ودورانها في أفلاكها. وبالرغم من إدراكنا أن الاستنتاجات العلمية غير نهاية وقابلة للتغير كلما حصلت اكتشافات جديدة، فإننا لا نملك إلا أن نقول :سبحان الله العليم الخبير الذي وهب الإنسان بعضا من علمه وهداه إلى مثل هذه الاكتشافات الدالة على قدرته.

وهناك الكثير من الآيات التي ترشد الإنسان إلى استخدام الطاقات التي منحها الله إياه للاستمرار في البحث عن دلائل وجوده وقدرته وحكمته. واننا لا نبطل كلام السلف في معنى الكثير من الآيات التي فسروها بناء على ما فهموه. فالشعور الذي استقر في نفوسهم عن أن هنالك حكمة عظيمة في خلق مظاهر الكون على هذه الشاكلة شعور مرهف وصحيح، وإن كان فهمنا الآن لدلالة الآيات على ضوء معطيات العلم الحديث أعمق وأدل. وكذلك فإن شعورنا في دقة صنعة الخالق سبحانه وتعالى وحكمته سليم. ففي قوله تعالى: (بَلى قادِرِينَ عَلى أَنْ نُسَوِّيَ بَنانَهُ) القيامة: ٤ كان إلى ما يقرب من مائة سنة ينظر إلى دلالة (تسوية البنان) نظرة تختلف عن نظرتنا لها الآن بعد معرفة قضية البصمات، فمن الظلم أن ننتقد السلف على عدم قدرتهم على تفسيرها كما نعلمها الآن. ومن الظلم أيضاً أن نرمي بهذه المكتشفات عرض الحائط خوفاً من معارضة ما قاله السلف السابق. ومن الظلم أن كل من قال تعالوا نحتكم إل كتاب الله، قالوا: كيف تجرؤ على مناقشة ما قاله السلف. وكأن الجميع يتناسى العديد من الآيات التي تبين أن حجة وجواب الذين لم يؤمنوا بالرسالات كانت على مر العصور قولهم لأنبيائهم : "قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ" ﴿٧٨ يونس﴾

"وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ"٢١ لقمان﴾

"وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ" ﴿٢٨ الأعراف﴾

"قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ" ﴿٢٤ الزخرف﴾

"وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ "﴿١٠٤ المائدة﴾

أشار القرآن الكريم إلى الأصل الموحد لهذا الكون وساق حقائق كونية في غاية الوضوح:

(أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ كانَتا رَتْقاً فَفَتَقْناهُما وَجَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ)، (وَجَعَلْنا فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنا فِيها فِجاجاً سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ وَجَعَلْنَا السَّماءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آياتِها مُعْرِضُونَ) الأنبياء: ٣٠ - ٣٢

ويفصل في آيات أخرى مراحل الخلق والتكوين، فيقول جلّ جلاله:

)ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ وَهِيَ دُخانٌ فَقالَ لَها وَلِلْأَرْضِ ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ (فصلت 11.(وَالسَّماءَ بَنَيْناها بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ) الذاريات: ٤٧

(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ * وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيها رَواسِيَ وَأَنْهاراً وَمِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ جَعَلَ فِيها زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) الرعد: ٢ - ٣.

(أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّماءُ بَناها * رَفَعَ سَمْكَها فَسَوَّاها وَأَغْطَشَ لَيْلَها وَأَخْرَجَ ضُحاها وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذلِكَ دَحاها أَخْرَجَ مِنْها ماءَها وَمَرْعاها وَالْجِبالَ أَرْساها مَتاعاً لَكُمْ وَلِأَنْعامِكُمْ) النازعات: ٢٧ - ٣٣.

)وَالشَّمْسِ وَضُحاها وَالْقَمَرِ إِذا تَلاها وَالنَّهارِ إِذا جَلَّاها وَاللَّيْلِ إِذا يَغْشاها وَالسَّماءِ وَما بَناها وَالْأَرْضِ وَما طَحاها (الشمس: ١ - ٦

إن القرآن الكريم هو قول الله وقوله هو الحق، وعند التمعن في هذه النصوص أستشعر أنها تخاطب كل الناس وتقول: يا أيها الإنسان الذي خلقك الله وميَّزك عن جميع المخلوقات بالعقل والمعرفة وحرية الاختيار، لقد اعطيتك إشارات وتلميحات عن قدرة الخالق وحكمته، فقم بواجبك وابحث واكتشف. وكلما اكتشفت شيئا ستدرك أن هناك لا تزال أشياء لم تتوصل إلى حقيقتها النهائية التي اختص الله نفسه بها ولم يُطلع عليها أحداً من خلقه. استعن بالله واطلب رضاه وهداه، وسترى على مر العصور أن وعد الله حق، وانه لا إله إلا هو العليم القدير الخبير ليس كمثله شيء.

استعمال كلمات اللسان واللغة

في التنزيل الحكيم

لم تُذكر كلمة لغة في القرآن الكريم، بل استعملت كلمة لسان

كلمة (لسان) من لسن التي تدل على حركة ، وظهر ذلك المفهوم في النظام الصوتي الذي يحمل معاني محددة للتواصل به، وأطلق على هذا النظام الصوتي المنطقي اسم لسان لتحقق به السمة. فاللسان هو الكلام عن طريق الصوت والنطق. وعندما تحققت وظيفة الكلام والتصويت بالعضو الموجود في الفم أطلق عليه اسم لسان. والأصل في استخدام كلمة (لسان) هو الوظيفة وليس العضو. ومن أمثلة استخدام لسان بمعنى العضو في الفم: {لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ }القيامة16{أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ }{وَلِساناً وَشَفَتَيْنِ }البلد8-9

ومن أمثلة استخدام لسان بمعنى وظيفة العضو: {وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ }الروم22 {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ }إبراهيم4 {وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَـذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ }النحل103

وينبغي أن نفرق بين لسان الرسول حامل الرسالة، واللسان الذي نزل به القرآن.

فلسان الرسول البشري ينبغي أن يكون مثل لسان قومه حتى يُبيّن لهم ، ومن وظائف اللسان عند كل قوم التبيين فيما بينهم، {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ }إبراهيم4، فلسان الرسول البشري هو مثل لسان قومه ولم يصفه الله بالعربي المبين، وهذا بخلاف اللسان الذي نزل به القرآن فهو عربي مبين. والقاسم المشترك بين لسان القرآن، ولسان القوم الذين نزل عليهم القرآن هو الأصوات العربية، ويختلفان بطريقة تركيب الجُمَل والكلام ، فالقرآن نزل بلسان عربي مبين محكم، بينما لسان القوم عربي ظهر فيه المجاز والترادف والمبالغة التي قد تتجاوز الحقيقة. واللسان لا يكون من غير صوت ونطق وكلام، أما اللغة فقد تكون بلا صوت ولا نطق ولا كلام! والعرب كانوا يتحدثون بلسان واحد، لكن كان لكل قبيلة لهجتها التي تميزها عن الآخرين، لذلك فقد نزل القرآن الكريم باللسان العربي الشامل المشترك بين القبائل العربية، سواء هلتي كهنت تعيش في الجزيرة العربية أو في بلاد الشام الكبرى أو في اليمن الكبرى حسب المتعارف عليه جغرافيا في فترة نزول الوحي .

في ضوء ما تقدم نلاحظ أن علِمي النحو والصرف يعتمدان على اللغة، فليس ثمة نحو وصرف بلا لغة، كما يستحيل أن تقوم لغة بدون نحو وصرف، ونظرا لهذه العلاقة المتينة بين اللغة والنحو والصرف، يتعين علينا أن نقف على علاقة اللغة بالنحو من جهة ثم علاقة اللغة بالصرف من جهة أخرى. أما اللغة فتعني اسم جنس للكلام المنطوق أو المكتوب، وأما النحو

فيعني العلم الذي يقيد ذلك الكلام بقوانين وأحكام خاصة، وأما الصرف فهو العلم الذي يعنى ببنية الكلمة في ذاتها من حيث تركيبها وهيئتها وموقعها في السياق.

التنزيل الحكيم وقواعد اللغة العربية

لقد قام سيبويه بعملية جرد إحصائي لمخزون اللغة العربية المتراكم حتى عصره، ثم قام بتبويب وضم وتجميع المواضيع المتشابهة بعضها مع بعض، فخلص بعد ذلك كله إلى قواعد يندرج تحتها (معظم) الكلام العربي، وترك الأخذ بما لم يندرج، معتبراً أنه من الشواذ، أو من الغريب. ولما كان التنزيل الحكيم، على رأس كلام العرب، الذي تم وضع القواعد في هديه، فقد ظهر معظمه تحت هذا التقعيد، وظل بعضه خارجه، فانظر في قوله تعالى:

–{هذان خصمان اختصموا في ربهم فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نارٍ يُصب من فوق رؤوسهم الحميم} الحج 19.

–{وهل أتاك نبؤ الخصم إذ تسوروا المحراب * إذ دخلوا على داوود ففزع منهم قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق .....} ص21، 22.

–{ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً أن اعبدوا الله فإذا هم فريقان يختصمون} النمل 45.

نجد أن الأسماء بصيغة المثنى (خصمان – خصمان – فريقان) والأفعال بصيغة الجمع (اختصموا – ربهم – الذين – كفروا – لهم – رؤوسهم – تسوروا – دخلوا – منهم – قالوا – بيننا – واهدنا) وفي هذا كله خلاف لقواعد سيبويه. لكن آيات التنزيل، كما هو واضح أمامنا، تدلنا على أننا نستطيع: 1 – حذف صيغة المثنى في الأفعال، وتبقى صيغة المفرد والجمع. 2 – الإبقاء على صيغة المثنى في الأسماء، وأسماء الإشارة، وجواز الإبقاء عليها في الأسماء الموصولة. 3 – الغاء صيغة المثنى من الضمائر، كما في قوله: {ربهم} عوضاً من ربهما.

وقوله تعالى {فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} (الدخان 58) يدل على أن النبي (ص) جاءه الوحي بلهجة قومه، أي لهجة قريش، وكانت تتميز بمكانة خاصة آنذاك، فكانت لهجة الشعر والأدب والمناظرات والمواسم الثقافية، وكانت تنتقي من اللهجات أجمل ما تستحسنه فيها لضمه إلى رصيدها اللغوي .

أمّا أن تكون القبائل قد نطقت التنزيل الحكيم بلهجاتها المختلفة، فهذا وارد جداً، لا سيما خلال تناقله فيما بينها مشافهة، وهذا ما أنتج اختلاف القراءات فيما بعد، وهو اختلاف في التدوين ولا يتعدى علامات التنقيط والتشكيل.

والتنزيل الحكيم ساهم في تطوير اللغة العربية بشكل لا يقتصر على البلاغة فقط، وإلا نكون قد اعتبرنا (حاشا لله) أن الله تعالى نافس الشعراء الجاهليين في أشعارهم، وهذا هراء محض، فالتنزيل قد طوَّر اللغة من جوانب عديدة تتجاوز كثيراً الشكل الجمالي، أهمها المضمون.

فالقفزتان المعرفية والتشريعية التي أتى بهما التنزيل لم يكن من الممكن تقديمهما في وعاء لغوي متأخر عن مستواهما. فخاصية عدم الترادف التي تَميَّز بها التنزيل الحكيم رَفَعت اللغة العربية إلى مستوى السهل الممتنع، وجعلت منها لغة متطورة عبر الزمان والمكان.

اختلف الباحثون في نشوء اللغات: هل هو توقيفي؟ أم تواضعي؟ ويقول ابن فارس في كتابه ((فقه اللغة)): إن لغة العرب توقيف، ودليل ذلك قوله تعالى: {وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا} أي الأسماء التي يتعارفها الناس من شجر، أنعام، حيوانات، .....

ويوضح ابن فارس معنى أن اللغة توقيف بقوله: "وليس معنى ذلك أن اللغة كلها جاءت جملة واحدة، وإنما المعنى أن الله علم آدم ما شاء، ثم علّم بني آدم بعده ما شاء أيضاً ، حتى انتهى الأمر إلى نبيّنا ((صلى الله عليه وسلم))، فآتاه الله ما لم يؤت أحد من قبله."

لذا، ينبغي أن نبحث عن معاني القرآن في القرآن ذاته، ونجعل من التاريخ اللُّغويّ، والتطور الدلالّي، ومعرفة الواقع وعلاقة اللُّغة به مراجعَ مساندة وليست أصولاً ومصادر حاكمة.
فالصيغة والنحو والصرف كما جاء في التنزيل الحكيم هو الأصل والمصدر، وكلام العرب هو مصدر مساند وليس بالضرورة أن يكون هناك تطابق. فذلك المنهج سوف يجعلنا في مأمن من الانحراف في معاني القرآن. ودلالات ألفاظه، أو الاضطراب في فهم معانيه، أو إسقاط قواعد لغات البشر عليه.

القلب والدماغ والعقل في القرآن الكريم

يعتبر خلق الإنسان من عجائب قدرة الله. ويبين سبحانه في التنزيل الحكيم لمحات عن المراحل التي مر بها الإنسان حتى جعله الله قادرا على أن يكون الخليفة في الأرض. فيقول تعالى:

(خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللَّـهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَـهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ). "سورة الزمر، آية: 6 ."

(وَاللَّـهُ أَخرَجَكُم مِن بُطونِ أُمَّهاتِكُم لا تَعلَمونَ شَيئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمعَ وَالأَبصارَ وَالأَفئِدَةَ لَعَلَّكُم تَشكُرونَ). "سورة النحل، آية: 78."

والقرآن الكريم يتناول الحديث بشأن جمال الإنسان من أكثر من جانب، وما ذاك إلا للدلالة على أهمية هذا المخلوق وللتنويه بتكريمه. والمرحلة الأولى التي ينطلق منها الجمال هي التسوية التامة ، فعدم الخلل وعدم النقص هو الحد الأدنى في الجمال. ويلفت القرآن النظر إلى هذا بلغة هادئة توقظ الحس وتحفز المشاعر

﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ) الافطار 6

﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾التغابن 3.

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ التين 4

{أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور} (الحج 46)، {ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون} (الأعراف 179)

في هاتين الآيتين يذكر النص القرآني أهم مكونات جسم الإنسان ووظائفها، فقد ورد في التنزيل الحكيم أسماء بعض الأعضاء صراحة وأشار إلى بعضها بذكر وظائفها .

1. "آذان يسمعون بها" الأذن عضو والسمع وظيفة الأذن .
2. "أعين لا يبصرون بها" العين عضو والبصر وظيفة العين.
3. "آذان لا يسمعون بها" الأذن عضو والسمع وظيفة الأذن.
4. قلوب يعقلون بها" القلب عضو والعقل وظيفة القلب "وهنا هو الدماغ والمخ الإنساني"
5. "قلوب لا يفقهون بها" القلب عضو والفقه وظيفة القلب

هناك بعض المصطلحات التي حصل التباس في تفسيرها وتأويلها عند الأوائل، نظراً لعدم توفر المعرفة العلمية عن تركيب جسم الإنسان ووظائف كل عضو من أعضائه. وكان هذا من حكمة الله وتقديره أن لا يُفصَّل في أمور لا يقدر إدراك الإنسان إلى فهمها في ذلك الوقت. ولكن الله ترك مهمة اكتشاف هذه المعلومات للإنسان الذي خلقه وزوده بشيء من علمه حتى يصبح قادرا على فهم مدلولات أيات الله.

وفي العصر الحاضر أصبح متوفرا للإنسان مجلدات من الدراسات عن الجسم البشري والعلوم الإنسانية النفسية والاجتماعية .

وسنقوم هنا باستعراض بعض هذه المصطلحات(الصدور، القلوب، الألباب، التعقُّل، التفكُّر) وشرح معانيها والقصد من استعمالها في التنزيل الحكيم مستفيدين من المعلومات الحديثة التي قدَّر الله للإنسان اكتشافها .

الصدور: ورد في المعاجم العربية أن:

صَدَرَ مِنَ الشَّيْءِ: بَرَزَ الصَّدْرُ : مُقَدَّمُ كلِّ شيءٍ، صَدْرُ : أعْلَى مُقَدَّمِ كُلِّ شيءٍ وأولُه ، وكلُّ ما واجَهَكَ

صَدَّرَ فلانًا : قدَّمه، أجلسه في صدر المجلس وذات الصدور : أسرار النفوس وخباياها

- اللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي ذَاتِ الصُّدُورِ : مَا فِي ذَاتِ الأَنْفُسِ ، أَيْ مَا يَخْتَبِئُ فِيهَا مِنْ أَسْرَارٍ كما في قوله تعالى في سورة آل عمران آية 154 "وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ "

ومن هذه التعاريف ندرك أن أعلى مقدم جسم الإنسان هو الرأس وأبرز ما في الرأس هو الجمجمة، وأول ما يواجهنا منها هو الوجه. ولكي نتعرف على الإنسان حين نقابله ننظر إلى مكان الصدارة فيه وهو الرأس فنتعرف عليه من شعره وجبهته ووجهه وعينيه.

ففي قوله تعالى: {فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور} (الحج 46). فهنا الصدور لا تعني صدر الإنسان الذي يحتوي على العضلة القلبية ، وإنما تعني رأس الإنسان. ومن السياق نلاحظ أنه بدأ بالأبصار، فأين العيون التي نبصر بها؟ إنها في الرأس. نستنتج إذاً أن القلب يقع في الرأس أيضا خاصة أن الكثير من الآيات تذكر الصدور في سياق الكلام عن التفكر والتذكر كقوله {بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم} (العنكبوت 49) {الذي يوسوس في صدور الناس} (الناس 5).

وكذلك قوله: {ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام} (البقرة 204). {أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوبٍ أقفالها} (محمد 24). إن التدبر صفة إنسانية والقرآن بحاجة إلى تدبر لذا أتبع تدبر القرآن بقوله: {أم على قلوبٍ أقفالها}. هذا الإصطلاح الذي نقول عنه الآن مخ مغلق أو مقفل.(Closed Mind)

فالآيات التي تذكر القلوب التي في الصدور هي من الأنباء في الآيات المتشابهات التي قال عنها سبحانه وتعالى أن تأويلها يأتي مستقبلا " (لكل نبأ مستقر وسوف تعلمون) الأنعام 67 وقال "وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ" [سورة آل عمران: آية 7]

فالتأويل الأصح هو: القلوب تعنى الدماغ الموجود في موقع الصدارة في الرأس، والذي فيه أجزاء وظيفتها التعقل والتفكير وتخزين المشاعر والأحاسيس، وليس القلب الذي وظيفته ضخّ الدم الموجود في الصدر أسفل العنق .

والآن نعود إلى شرح معاني المصطلحات

العقل: إن دعوة القرآن الكريم للنظر العقلي دعوة صريحة لا تقبل التأويل، فقد جعل الإسلام النظر العقلي واجبًا دينيًا، وجعل ممارسة الوظائف العقلية فريضة إلهية؛ بل ومسؤولية حتمية لا يستطيع الإنسان الفكاك منها و سيحاسب على مدى حسن أو إساءة استخدامه لها. وعند الحديث عن النظر العقلي في القرآن الكريم فإن الأمر يقتضي أن نتحدث أولًا عن مكانة العقل في القرآن الكريم؛ لأن العقل أساس النظر، ولا يوجد نظر بدون عقل كما يقول الإمام الجويني: إن (شرط ابتداء النظر تقدم العقل).ولم يرد لفظ «عقل» في القرآن الكريم على الإطلاق، وإنما جاء النظر العقلي بمعنى استخدام العقل في التعقل؛ لأن العقل ليس عضوا قائما بذاته، إنما هو عمليات عقلية صرحت بها الآيات الكريمة في مواضع كثيرة .

وفعل «عقل» (بمعنى: ربط الأفكار بعضها ببعض، فجاءت مشتقات «العقل» في تسع وأربعين آية كلها بالصيغة الفعلية: - وتكررت صيغة يعقلون 22 مرة. - وجاءت صيغة تعقلون 24 مرة.

وحيث لم ترد كلمة «العقل» بالصيغة الاسمية في القرآن الكريم فقد وردت مرادفات العقل بالصيغة الاسمية مثل اللب، وجمعت على الألباب والحلم وجمعت على الأحلام، والحِجر، والقلب، والفؤاد وكلها جاءت بمعنى العقل .

يقول الإمام محمد عبده : إن الله أقام العقل حكمًا فاصلًا في إقرار اليقين، وبنى أحكامه الخلقية على أسس عقلية، وهكذا «تآخى العقل والدين لأول مرة في كتاب مقدس على لسان نبي مرسل، بتصريح لا يقبل التأويل«

فتقرر لدى المسلمين أن العقل لا غنى عنه في التسليم بالكثير من المعتقدات، كوجود الله، وإرسال الرسل، وإدراك فحوى الرسالة، والتصديق بها. وتقرر لديهم أيضًا أن من هذه المعتقدات ما قد يعلو على الفهم، إلا أنه لا يناقض العقل.

- اللب: لبب ، اللب: هو العقل الخالص من الشوائب، وسمي بذلك لكونه خالص ما في الإنسان من معانيه، كاللباب واللب من الشيء، وقيل: هو ما زُكِّي من العقل، فكل لب عقل وليس كل عقل لبا. ولهذا علق الله تعالى الأحكام التي لا يدركها إلا العقول الزكية بأولي الألباب نحو قوله: ﴿ يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذَّكر إلا أولو الألباب) [البقرة/269] أي أصحاب العقول النيّرة، ونحو ذلك من الآيات .

وقال ابن عربي: إن الله خلق الإنسان حيًا عالمًا، قادرًا مريدًا متكلمًا سميعًا بصيرًا مديرًا حكيمًا، وهذه من صفات الرب سبحانه التي وهبها للإنسان بنفخة الروح. وإلى هذا المنحى ذهب سيد قطب رحمه الله حين قال: ﴿ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ فطرةً واستعدادًا. وذهب فريق ثالث من المفسرين إلى الجمع بين الاتجاهين السابقين.

- القلب :

لقد جاء القلب في اللسان العربي من "قَلَبَ" والقاف واللام والباء أصلان صحيحان: أحدهما يدل على خالص شيء وشريفه، والآخر على رد شيء من جهة إلى جهة، والأول القلب قلب الإنسان وسمي قلباً لأنه أخلص شيء فيه وأرفعه، وخالص كل شيء وأشرفه قلبه. لنرى الآن كيف استعمل الكتاب هذا المصطلح. فما هو أخلص شيء وأشرفه في الإنسان؟ ويا ترى أي عضو من أعضاء الإنسان أطلق عليه الكتاب مصطلح القلب؟

لقد أطلق الكتاب مصطلح القلب على عضو يعتبر من أنبل الأعضاء في جسم الإنسان، هذا العضو هو الدماغ، وهو أنبل الأعضاء لدى الإنسان لذا سمي بالقلب، وقلب المخ هو القشرة الخارجية حيث هي أنبل جزء وفيه "مركز الفكر والإرادة" وفي هذه الحالة يزول التعجب حيث أن الكتاب ذكر من أعضاء الإنسان اليدين والأرجل والجلود والحناجر والأذن والعين واللسان والشفة والأمعاء والقلب فكيف لم يذكر الدماغ وهو أنبل الأعضاء قاطبة؟ لأنه ذكر القلب(الذي يُقلِّب المُدركات) وهذه وظيفة من وظائف الدماغ والمخ.

نخلص إذاً إلى أن الآيات الواردة في الكتاب والمذكور فيها "القلب" تعني أشرف وأنبل عضو في الإنسان وهو الدماغ وهو عضو التعقل كما أن العين هي عضو البصر والأذن عضو السمع. ولكي نميز القلب الذي يعقل عن القلب الذي يضخ الدم يجب علينا أن نقول: "القلب" عن الذي يعقل، و"العضلة القلبية" عن الذي يضخ الدم. ونحن نعلم الآن أن العضلة القلبية والدماغ هما الأعضاء النبيلة في الإنسان.

- العقل والفكر :

العقل في اللسان العربي جاء من "عَقَلَ" وهو أصل واحد يدل على حبسةٍ في الشيء أو ما يقارب الحبسة. فالعقل وهو الحابس عن ذميم القول والفعل. قال الخليل: العقل: نقيض الجهل يقال:

عقل، يعقل عقلاً، ومن الباب: المعقل وهو الحصن. ويقال: عقلت البعير، أعقله عقلاً إذا شددت يده بعقاله، وهو الرباط، وعقيلة كل شيء أكرمه.

والفكر في اللسان العربي جاء من "فَكَرَ" وهي تردد القلب في الشيء. وجذرها "فك" وتعني التفتح والانفراج، وجاءت الراء للتكرار والترداد في عملية التفتح وفك الأشياء بعضها عن بعض، ومنه جاء معنى الفِكر وهو فك الأشياء بعضها عن بعض وتقليبها. وهكذا نرى أن الفكر والعقل صفتان متتامتان، فالفكر يفكك الأشياء بعضها عن بعض ويقلبها والعقل يشد "يربط" الأشياء بعضها إلى بعض، فالفكر يفاضل ويحلل الأشياء بعضها عن بعض، والعقل يكامل ويركب عناصر الأشياء بعضها إلى بعض ليصدر حكماً يتعلق بالوجود المادي الموضوعي أو حكماً يتعلق بالسلوك الاجتماعي والأخلاقي.

- الفؤاد :

هو الإدراك المشخص الناتج عن طريق الحواسّ مباشرة (perception) وعلى رأسها السمع والبصر لقوله تعالى: {وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً} (الإسراء 36). وهو ردّ الفعل الغريزي الموجود عند الحيوان والإنسان معاً مع فرق بينهما أنّ الفؤاد الغريزي الإنساني متطوّر عن الحيواني لأنّه يربط بين الاسم والمسمّى ويزيل التناقض بينهما. فالفؤاد هو بمثابة مخزن المدخلات الحسّية للفكر الإنساني لأنّه يمثل المادّة الخام التي تنطلق منها عملية التفكير المجرّد للإنسان. والفؤاد هو بمثابة الصاعق "المحرّض" للفكر الإنساني أي يمثل مرحلة الإقلاع له.

قال تعالى: ﴿ما كذب الفؤاد ما رأى﴾ [النجم/11]، ﴿إن السمع والبصر والفؤاد﴾ [الإسراء/36]، وجمع الفؤاد: أفئدة. قال: ﴿فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم﴾ [إبراهيم/37]، ﴿وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة﴾ [الملك/23]، ﴿وأفئدتهم هواء﴾ [إبراهيم/43]، ﴿نار الله الموقدة * التي تطلع على الأفئدة﴾ [الهمزة/6 - 7]. وتخصيص الأفئدة تنبيه على فرط تأثير له وفي قوله تعالى: "وأصبح فؤاد أم موسى خاليًا" أي نتيجة لفزعها لم يكن في إحساسها إلا الخوف على مصير موسى، فكادت أن تتصرف غريزيا بدون تفكير، فتصرخ وتولول، وكاد ذلك أن يكشف أمرها لولا أن ألهمها الله بالصبر وطمأنها على مصيره. فصبرت ولم تُبْدِ به؛ لتكون من المؤمنين بوعد الله الموقنين به. إضافة إلى التفريق بين العقل والقلب ، من الضروري الفصل بين القلب

والنفس، فالنفس مذكورة في القرآن الكريم على ثلاثة أحوال: "النفس الأمارة بالسوء، والنفس اللوامة، والنفس المطمئنة". وكذلك القلوب على ثلاثة أشكال: "قلب سليم، وثان مريض، وثالث ميت. وسنتناول النفس والروح في بحث لاحق.

ويمكن تلخيص ما سبق من خلال الشكل التالي :

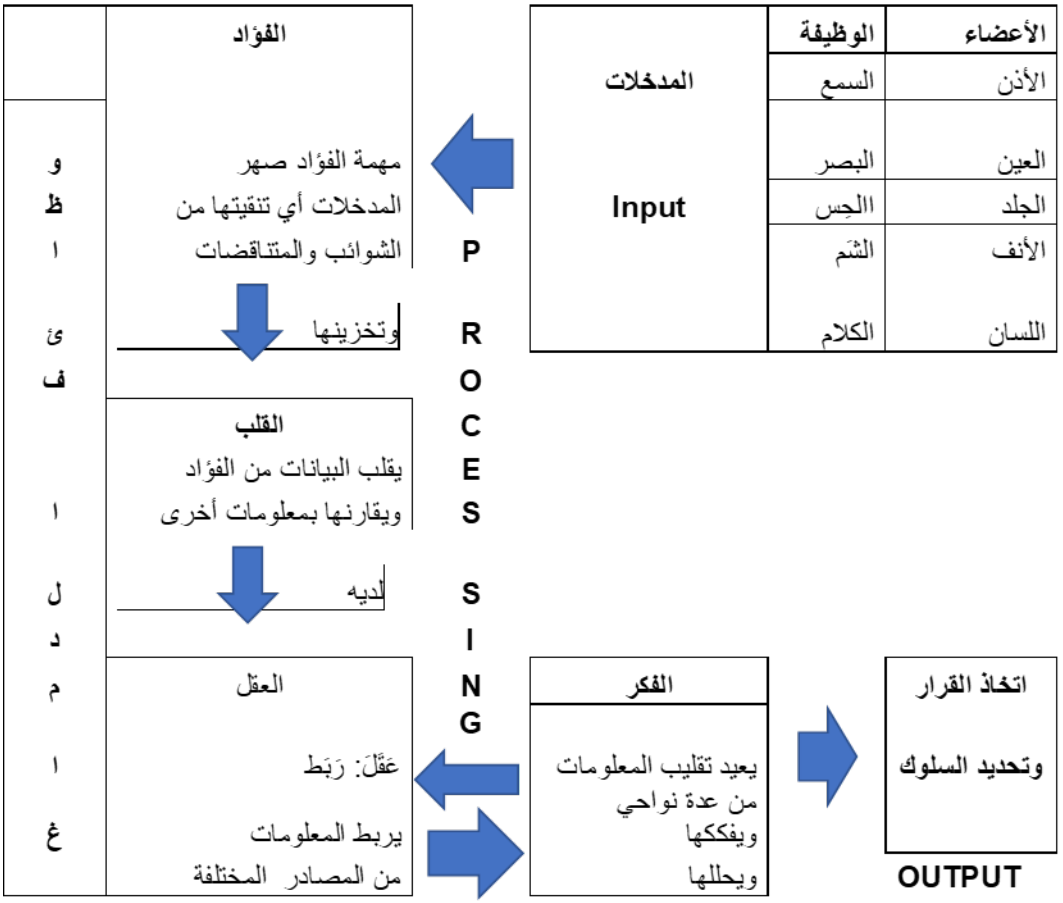

ولننظر الآن إلى ما توصل إليه العلم فيما يتعلق بوظائف كل من القلب والدماغ لتبين لنا صحة التأويل الذي ذكرناه. وندرك دائما أن العلوم قد لا تعطي الحقيقة المطلقة دائما. فقد منحنا الله القدرة على التفكير بما منحنا الله بجزء من علمه " وما أوتيتم من العلم إلا قليلا" وانما تُعطي العلوم دلائل عل الحقيقة التي لا يعلمها بكمالها إلا الله .

الدماغ البشري واحدة من المعجزات الالهية التي حيرت العلماء مهما حاولوا دراستها و التوصل الى ماهية عملها ، الدماغ البشرية تحتوي على بلايين من الخلايا العصبية التي تترابط معاً بأنظمة دقيقة و كل جزء منها يعمل بشكل منفصل و مترابط في آن واحد ، الدماغ البشري مسئول عن العاطفة و السلوك و المنطق و التصرفات كما انها ترتبط مع بقية اجزاء الجسم بنظام غاية في الدقة يمكنها من متابعة كل جزء في الجسم في الوقت ذاته القيام بوظائفها الخاصة ، تفكر في رد فعلك الذي لا يستغرق جزء من الثانية حينما تبعد يدك عن موقد النار و مازال دماغك يعمل و جسدك يقوم بوظائفه دون توقف كيف تعمل تلك المعجزة الالهية بهذه الدقة و النظام في الاف الوظائف الحيوية الخصة بها و بالجسم في آن واحد.

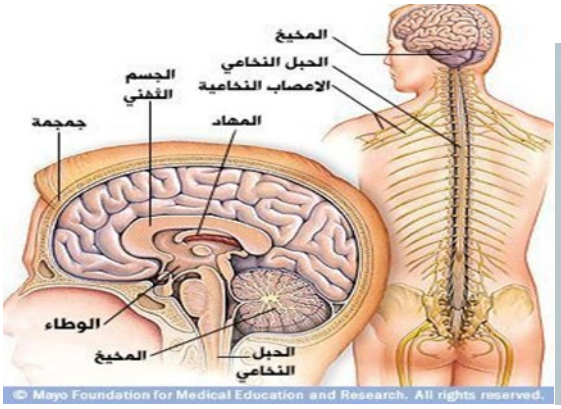

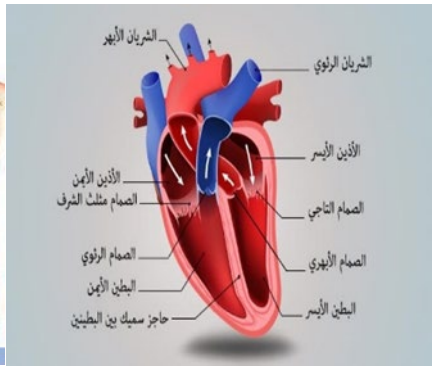

أن الإنسان يمتلك أكبر حجم للدماغ ويصل وزن الدماغ البشري إلى 3 أرطال، ووظيفة الدماغ والعقل البشري التفكير، ونلاحظ أن البشرية دائما في تطور مستمر بفضل العقل البشري الذى وهبه الله للإنسان، سبحان الله.

المخ : هو اكبر جزء من الدماغ البشري المخ ينقسم الى شقين يتصلان معاً عن طريق الخلايا العصبية السميكة و يتم التعامل بين الشقين و الجسم عن طريق الانعكاس فالجزء الايمن من المخ مسؤول عن الجزء الايسر من الجسم و العكس صحيح .

فصوص الدماغ : ينقسم نصفي الدماغ الى اربعة فصوص كل واحد منها مسئول عن بعض العمليات و الوظائف المختلفة ،

الفص الجبهي مسئول عن الحركة و الذاكرة قصيرة المدى و التخطيط و التنظيم و حل المشكلات و يليه

الفص الجداري و هو المسئول عن ترجمة الاحساس بالحرارة و الذوق و الملمس و غيرها من الافعال الحسية الفص القذالي هو الفص المسئول عن ترجمة الصور التي تلتقطها عينيك و التعرف عليها عن طريق مقارنتها بالصور المخزنة سابقاً ،

الفص الصدغي هو المسئول عن ترجمة بعض الافعال و المعلومات الخاصة بحاسة التذوق و الرائحة و الصوت و كذلك الذاكرة .

المخيخ و جذع الدماغ : المخيخ عبارة عن كتلة من الانسجة التي تتواجد تحت الدماغ و هذه الكتلة مسئولة عن ربط المعلومات التي تجمعها العين و الاذنين و العضلات لتنسيق الحركة و تنظيم وظائف الجسم ، اما جذع الدماغ فهو الرابط بين الدماغ و الحبل الشوكي وهى التي تقوم بالمهام الحيوية من ضربات القلب و معدل النبض و التنفس و ضغط الدم و كذلك مسئولة عن النوم و الراحة.

الدماغ الداخلي : الهيكل الداخلي للدماغ هو المسئول عن الذكريات و المشاعر و هو المسئول عن الادراك و كل جزء منه يتواجد بشكل مزدوج جزء منه في النصف الايمن من الدماغ و نفس الجزء في الجزء الايسر من الدماغ و تنقسم الى ثلاثة اجزاء ، المهاد و هو المسئول عن تنظيم و نقل الرسائل بين الحبل الشوكي و نصفي الدماغ ، الوطاء هو المسئول عن العاطفة و تنظيم دوافع الجسم مثل تناول الطعام و الحاجة للنوم و درجة حرارة الجسم اما الحُصين يقوم بإرسال الذكريات لتخزينها في اماكنها الصحيحة و يقوم باسترجاعها وقت الحاجة.

الجهاز العصبي المحيطي : الجهاز العصبي هو انتشار الاعصاب في جميع اجزاء الجسم ، الاعصاب التي تتواصل مع الدماغ و تنقل كل الرسائل من خلايا الجسم و الاطراف الى الدماغ و العكس ، ردود الافعال التي تحدث مثل رسائل الالم و ردود الافعال ألا ارادية و غيرها من الرسائل التي ترسلها الاعصاب الى الدماغ و تتلقى الاجابة في اقل جزء من الثانية ليتم رد الفعل بشكل صحيح و دقيق و مناسب دون التأثير على بقية الوظائف الخاصة بالجسم و الدماغ.

الخلايا العصبية : هي الخلايا المنتشرة في الجسم و تتواجد في ترابط و تواصل بين بعضها و تتصل بالمخ و تقوم بنقل الرسائل العصبية من خلية لأخرى بشكل متناسق و سريع عبر ترابطها و تواصلها و قدرتها على ادراك الرسالة و نقلها بسرعة البرق.

الفرق بين دماغ الإنسان ودماغ الحيوان

اكتشف العلماء في دماغ الانسان جزءا فريدا، يفرق بين الانسان والحيوان، لا يوجد مثيل له في دماغ الحيوانات، ومن ضمنها القردة الشبيه بالإنسان. ويقول العلماء البريطانيون الذي اكتشفوا هذا الجزء الفريد، انهم قارنوا خلال الدراسة نتائج التصوير بالرنين المغناطيسي لدماغ 25 شخصا و25 قردا. بينت نتائج المقارنة ان 11 من 12 جزءا من الدماغ متشابه بالكامل تقريبا، ولكن الجزء الـ 12 ليس له وجود في دماغ القردة. الجزء المختفي من دماغ القردة، هو قشرة الفص الجبهي للدماغ، حيث ان هذا الجزء من الدماغ يختلف عند الانسان عن الموجود في دماغ الحيوانات. هذا الجزء مسؤول عن التخطيط الاستراتيجي والقدرة على تنفيذ عدة مهام واتخاذ القرارات في آن واحد.

ونستطيع أن نزيد في المقارنة بيننا وبين الحيوان، فنقول: إن تَعَقُّل الحيوان ـــ مثلًا ـــ حسيٌّ، وتعقُّلنا تَصَوُّرِيٌّ؛ هو يحس ويسلك بمقتضى إحساسه فقط، ونحن نحس ونسلك بمقتضى تصوُّرنا وتخيُّلنا. وهذا أيضًا كلام مُجْمَل؛ لأن كثيرًا من الحيوانات العليا تتصور وتتخيل، وإن لم تَبْلُغ درجتنا.

واللغة عندنا تجعل كثيرًا من التعقل تخيليًّا تصوريًّا. والحيوان محروم من اللغة، فلا يجد ما نجد من رسم الصور في أذهاننا والتفاهم بالكلمات عن الأشياء حين تنتقل الصور، وتتغير الأخيلة في أذهاننا بالحديث.

تفكير العاطفة هو مثل الغضب والحسد والأنانية والشره والكراهة، وتفكير الوجدان هو مثل المنطق والهندسة والمروءة والواجب والتبصر والشرف. وحين تملكني العاطفة أكون منفعلًا فلا أكاد أفكر كما يحدث عندما أجري من الخوف أو آكل وأنا جائع أو أتشاجر في غَضَب. ولكني في الوجدان أُوَازن بين عاطفة وأخرى، فأقف وأَتَبَصَّر وأعتمد على المنطق وأروي وأنتقد وأُحَلِّل وأؤلف.

الوجدان هو أن أفكر وأعمل وأنا أدري أني أفكر وأعمل، هو كما قال ديكارت، قبل أكثر من ٣٠٠ سنة: «أنا أفكر؛ ولذلك أنا موجود«.

العاطفة هي أن أنساق في رغبة أو شهوة قسرًا أو كالقسر، وأنسى نفسي فلا أكاد أفكر.

الحيوان عاطفي لا يدري بوجوده (= بوجدانه)، وهو ينفعل بعاطفته وينساق بها مضطرًّا أو كالمضطر في تصرفه. والدنيا مصوَّرة في عقله تصويرًا ذاتيًّا أمْلَته العاطفة، وهو تصوير يخالف الواقع.

ولكن الإنسان وجداني، يدري بوجوده، يقف ويتأمل ويوازن بين الاعتبارات، والدنيا مصوَّرة في ذهنه تصويرًا موضوعيًّا؛ أي كما هي تقريبًا في الواقع غير متأثر بانفعالاته أو متأثر قليلًا.

الوجدان يؤدي إلى الذكاء، وهو «الغريزة العالمية» التي تحملنا على ترك إحساسنا الخاص والتخلص من انفعالاتنا حتى نرى الدنيا رؤية موضوعية؛ أي: كما هي في حقيقتها وليس كما يُصَوِّرها لنا غضبنا أو هوانا أو طمعنا أو خوفنا؛ أي: ليس كما تُصَوِّرها لنا انفعالاتنا. بل يكاد الوجدان في البشر يكون عاطفة جديدة؛ لأننا بالوجدان نُحِسُّ قِيَمًا ونتخذ مقاييس عالمية ـــ بل كونية ـــ نتساءل عن أصل العالم والنجوم والحيوان والنبات وأصل الكون ومنتهاه، ونبحث الحضارة الصينية وأجزاء الذرة وقيمة الفلسفة والدين والغاية من الوجود، وأصل الفضيلة، وننتقد الطبيعة ونصوغ المستقبل

وغاية الوجدان كما نبصرها الآن في ضوء تكوُّنه وتطوُّره الماضِيَيْنِ أن يكون حاسَّةً كونية نعرف بها الأشياء في هذا الكون كما هي في حقيقتها.